فوائد من اخبار القضاة

وصلنا في الجزء الماضي من اخبار القضاة الى هرون بن عبد الله الذي ولاهُ المأمون قضاء مصر سنة ٢١٠ للهجرة . وقد نقل مؤلف كتاب القضاة ان هرون هذا جعل مجلسهُ في الشتاء في مقدم المسجد واستدبر القبلة واسند ظهرهُ لجدار المسجد ومنع المصلين ان يقربوا منهُ ويباعد كتبهُ عنهُ ويباعد الخصوم وكان اول من فعل ذلك . واتخذ مجلساً للصيف في صحن المسجد واسند ظهرهُ لحائط الغربي . وعليهِ فالمحكمة كانت في المسجد ولم يكن لها بناء خاص بها . وفي عهدهِ امر الخليفة المأمون بالمحنة اي باشهاد القضاة وغيرهم من العدول ورجال العلم ان القرآن مخلوق فكان هرون بن عبدالله اذا شهد عندهُ شاهدان سألهما عن القرآن فان اقرَّا انهُ مخلوق قبلها والاَّ اوقف شهادتهما . وكانت هذه المحنة من سنة ثماني عشرة الى ان قام المتوكل سنة اثنتين وثلاثين ومائتين . اما هرون فلم يزل على القضاء الى سنة ست وعشرين ومائتين . وخلفهُ محمد بن ابي الليث الخوارزمي وكان قبل دخولهِ مصر ورَّاقاً على باب الواقدي وكان فقيهاً بمذهب الكوفيين فكان من امرهِ لما ولي القضاء ان حاسب هرون بن عبد الله على ما كان في بيت المال وامر بحبسهِ وكشفهِ ومما نعلمهُ ايضاً ان سعيد بن زياد الملقب بابن القطاس كان من اهل الديانة والفضل وقد شهد عند طبعة بن عيسى وابرهيم بن الجراح وابن المنكدر وهرون وكانت لهُ حلقة في المسجد الاَّ انهُ كان يتكلم مع جلسائهِ بسب ابن ابي الليث والدعاء عليهِ فاوقفهُ ابن ابي الليث واتى رجل من الازد فادعى رقبتهُ (اي انهُ عبد لهُ) واتى بالشهود يشهدون لهُ على ذلك فحبسهُ القاضي خمسة ايام ثم حكم بشهادتهم وامر بهِ فنودي عليهِ فبلغ ديناراً فاشتراهُ محمد بن ابي الليث واعتقهُ

ثم لما قام الخليفة المتوكل رُفع اليهِ امر ابن ابي الليث فبعث فوصرة [1] لينظر في امرهِ فكتب اليهِ فوصرة بما صحَّ عندهُ من امرهِ فاتى كتاب المتوكل بحبسهِ واستصفاء اموالهِ فحبسهُ فوصرة هو وولدهُ واصحابهُ واعوانهُ واستصفيت اموالهم كلهم ثم ورد كتاب المتوكل بلعن ابن ابي الليث على المنبر فلعنهُ مكرم بن حاجب الامام على المنبر ولعنتهُ العامَّة

وتلا ذلك الافراج عنهُ والايقاع بخصومهِ واستصفاء اموالهم ثم الايقاع بهِ ثانية وحلق رأسهِ ولحيتهِ وضربهُ بالسوط وحملهُ على حمار بإكاف وتطوافهُ الفسطاط . ويظهر من ذلك ان القضاة كانوا يطلقون شعور رؤوسهم كما يطلقون لحاهم

---

(١) هو يعقوب بن ابرهيم الذي جعل والياً على اريد مصر

ومما ذكره المؤلف ايضاً ان زي اهل مصر وجمالـــ شيوخهم واهل الفقه والعدالة (الشهود) منهم كان لباس القلانس الطوال كانوا يبالغون فيها فامرهم القاضي ابن ابي الليث بتركها ومنعهم لباسها وان يشبهوا بلباس القاضي وزيه فلم ينتهوا فجلس في مجلس حكمه في المسجد واجتمع اولئك الشيوخ عليهم القلانس فاقبل اثنان فضربا رؤسهم حتى القوا قلانسهم فتناولها الصبيان والرعاع يلعبون بها وفي ذلك يقول شاعرهم

واخفت ايام الطوالـــ واهلها نزموا بكل طويلة لم تقصر
ما زلت تأخذهم بطرح طوالهم والمشي نحوك بارؤوس الحسّر
حتى تركتهم يزون لباسها بعد الجمال خطيّة لم تفتر
لبسوا الطوال لكل يوم شهادة ولقوا القضاة بشية وتجتر
ما لي اراهم مطرقين كأنما دمغت رؤوسهم بحجى خير

وولي القضاء بعده الحارث بن مسكين قال محمد ابن ابي الحديد «انا وليت الحارث بن مسكين القضاء كنت عند المتوكل فذكر رجلاً يوليه قضاء مصر فقال اكتبوا الى عيسى بن لهيعة فقلت الله الله يا امير المؤمنين في السلمين ان عيسى بن لهيعة مستهتر بالشطرنج قال فمن ترى قلت بها رجل يعرفه امير المؤمنين وهو الحارث بن مسكين فقال صدقت اكتبوا له». فاتاه كتاب القضاء وهو بالاسكندرية فنفض الكتاب فلما قرأه امتنع من الولاية فجبره على قبولها اخوانه وقالوا نحن نقوم بين يديك . فقدم الفسطاط وجلس للحكم . وحمله اصحابه على كشف ابن ابي الليث والتقضي عليه بمثل ما تقضى به على هرون بن عبد الله من رفع حساب بيت المال وما كان فيه فكان ابن ابي الليث يوقف كل يوم بين يدي الحارث فيضرب عشرين سوطاً ليخرج مما وجب عليه من الاموال التي كانت تحت يده

وكان الحارث هذا مقعداً من رجليه فكان يحمل في محفة في المسجد الجامع وكان يركب حماراً متربعاً . وطلب اليه في لباس السواد فامتنع فوقفه اصحابه سطوة السلطان به وقالوا يقال انك من موالي بني امية فاجابهم الى لباس كساء اسود من صوف . وامر باخراج اصحاب ابي حنيفة من المسجد واصحاب الشافعي وامر بترع حصرهم ومنع عامة المؤذنين من الاذان ومنع قريشاً والانصار ان يدفع اليهم من طعمة رمضان شيء وامر بعمارة المسجد الجامع وحفر خليج الاسكندرية ونهى عن تشييد المنائر فابيحت للناس ومنع من النداء على الجنائز وضرب فيه ومنع القرّاء الذين في مسجد محمود وغيره الذين يقرأون القرآن بالالحان وترك تلقي الولاة والسلام عليهم وامر بضرب عنق رجلين نصرانيين شهد عنده انهما ساحران

وحضر الحارث بن مسكين ويونس بن عبد الاعلى جنازة فاخذ يونس في كلام الزهاد والحكاية عن الصالحين فبكى بعض اهل المجلس وخاف الحارث بن مسكين بذلك فالتفت الى يونس برفق فقال له انت تحسن هذا كله وانت تصنع ما تصنع . فقال له يونس انت قاضي وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من جُعل قاضياً فقد ذُبح بغير سكين

قيل شهد رجل عند الحارث بن مسكين فقال له الحارث ما اسمك قال جبريل قال له الحارث لقد ضاقت عليك اسماء بني آدم حتى سميت باسماء الملائكة فقال له الرجل كما ضاقت عليك الاسماء حتى سميت باسم الشيطان فان اسمه حارث . وصُرف الحارث ابن مسكين عن القضاء سنة ٢٤٥ وليهُ سبع سنين واحد عشر شهراً . وخلفهُ بكار بن قتيبة من قبل المتوكل

وانتهى هنا ما كتبهُ المؤلف ابو عمر محمد بن يوسف الكندي فذيلهُ ابو الحسن احمد ابن عبد الرحمن بن برد ولكن شتان بين ما كتبهُ هو وما كتبهُ الكندي لانهُ ذكر سطوراً قليلة من اخبار كل قاضٍ ولم يذكر فيها شيئاً يستحق النقل او تستفاد منهُ فائدة ما

وقد الحقت بالكتاب فصول من كتاب رفع الإصر عن قضاة مصر وكتاب النجوم الزاهرة بتلخيص اخبار قضاة مصر والقاهرة والكلام فيها كثير الفوائد والنكت ولكنهُ ليس مستداً كالكلام في اخبار القضاة . ومما جاء فيها عن الحارث بن مسكين انهُ لما اتى المأمون مصر طلب وزيرهُ الفضلُ بن مروان الحارث بن مسكين ليوليهُ القضاء وسألهُ ما تقول في ابن اسباط وابن نمير فقال ظالمين غاشمين فقال ليس لهذا احضرناك فاضطرب اهل المجلس وقام الفضل ودخل على المأمون وقال لقد خشيت على نفسي من ثوران الناس مع الحارث فارسل المأمون الى الحارث فحضر فاعاد عليهِ المسألة فقال ظالمين غاشمين فقال لهُ المأمون هل ظلمك في شيء قال لا قال فعاملها قال لا قال كيف شهدت عليها فقال كما اشهد انك امير المؤمنين ولم ارك قط الا الساعة وكما اشهد انك غزوت ولم احضر غزوك . فقال اخرج من هذه البلاد فليست بلادك ويع فليلك وكثيرك فانك لا تبقى فيها ابداً وحبسهُ في قبة هرقمة في رأس الجبل في خيمة ثم انحدر المأمون واحدرهُ معهُ فلما فتح البلاد التي قصدها احضر الحارث فلما دخل عليهِ سألهُ عن المسألة بعينها فاعاد الجواب بعينهِ ثم قال لهُ ما تقول في خروجنا هذا فقال اخبرني عبد الرحمن بن القاسم بن مالك ان الرشيد كتب اليهِ يسألهُ عن قتال اهل دهلك فقال ان كان خروجهم من ظلم من السلطان فلا يحل قتالهم وان كانوا انما شقوا العصا فقتالهم حلال . فأجابهُ المأمون بجواب فسيح سبهُ فيهِ وسبَّ مالكاً وقال للحارث ارحل عن مصر فقال يا امير المؤمنين الى الثغر قال لا الحق بمدينة السلام فرحل اليها واقام فيها من سنة ٢١٧ الى سنة ٢٣٢ وكان ذلك قبل ولّي القضاء على ما تقدم